ما هي حكمة الموت؟

ولماذا النفور والخوف منه؟(*)

إعداد: عبد الله محمد أمين

فكرة الموت ومفارقة الحياة الدنيا من الأفكار التي تثير قلق الإنسان وعذابه، كما تحمله على التساؤل المرّ، لماذا خُلقت؟ وما الهدف من وجودي؟ ولماذا عليّ أن أفقد هذه الحياة؟ أليس في ذلك لغو وعبث لا فائدة منه.

وهذا الشاعر الفارسي الشهير عمر الخيام يعبّر عن هذا القلق الوجودي والألم من فكرة الموت بشكل طفولي في رباعياته قائلاً:

"لقد رُكّب الكأس بهذا الشكل الرائع
والشارب لا يرى كسرها أمراً جائزاً
ما أكثر الذين يتمتعون بقد السرو والأيدي الجميلة والوجوه الصبيحة
فلماذا خلقها؟ ثم لماذا يسلّط عليها الفناء؟"

* * * * *

إنها كأس تغرق العقل في الحيرة والإعجاب
فيقبّلها العقل مائة مرة قبلة في جبينها
فكوّاز هذا الدهر يصنع الكأس بهذا اللطف
ثم يضرب بها الأرض!"

وهو يعبّر عن خيبته من واقع هذه الحياة، وعن نفوره من الموت بقوله:

"لو كان مجيئي باختياري ما جئت
ولو كانت صيرورتي بأمري ما صرت
ألم يكن أفضل من ذلك في هذا الدير المهدّم،
عدم المجيء وعدم الصيرورة وعدم الوجود؟".

فالنفور من الموت والخوف منه واعتباره نهاية المطاف، كان أحد الدوافع القوية لظهور الفلسفات المتشائمة التي ظهرت قديماً وحديثاً، والتي تتصور الحياة بدون هدف أو

(*) اعتمدت هذه المقالة بشكل أساس على أفكار العلامة الأستاذ مرتضى مطهري في كتابيه: "العدل الإلهي"، و"التوحيد".

معنى أو حكمة. وهذا ما أوقع هؤلاء الفلاسفة والكتّاب والأدباء بالحيرة والاضطراب، وأحياناً كثيرة قادهم إلى فكرة الانتحار والتخلص من الحياة، التي طبّقها العديد منهم في عصرنا هذا، أمثال "مالرو" الفرنسي، و"منتغمري" الأميركي، والشاعر خليل حاوي اللبناني، وغيرهم الكثير. ولسان حال هؤلاء يعبّر عنه الشاعر والفيلسوف المتشائم الخيّام نفسه بقوله:

"لو أنني وجدت ثمرة واحدة على غصن الأمل
لكنني وجدت رأس خيطي
فإلى متى أعيش في ضيق سجن الوجود؟
ليتني وجدت طريقي إلى العدم!"

النفور من الموت والأمل بالخلود

إن الخوف من الموت هو من مختصات الإنسان وحده، فالحيوانات لا تفكّر في الموت، وما يوجد لدى الحيوان، إنما هو فقط غريزة الفرار من الخطر والرغبة في حفظ الحياة الحاضرة، وهو رد فعل آني وتلقائي ومبهم، أما الإنسان فلديه رغبة في البقاء، أي في الحياة المطلقة، وهذا يعني أن لديه الأمل في الخلود، والأمل في الخلود تعبير عن فكرة الأبدية، وعلى هذا يكون خوف الإنسان من الموت متميزاً عن غريزة الفرار من الخطر. كما يمكن أن نعتبر النفور من الموت وليد الرغبة في الخلود، وأن هذه الرغبة في الخلود، دليل على بقاء الإنسان بعد الموت، فكما أن العطش دليل على وجود الماء، كذلك فإن الأمل الذي يشعر به الإنسان تجاه الخلود يدل على رفض الإنسان للعدم وللحياة المحدودة.

نسبية الموت والحياة

ينشأ الخوف من الموت في الغالب، من تصوّر كونه عدماً مطلقاً، والحال أنه ليس كذلك، وإنما هو تحوّل وتطور، فالموت ليس عدماً مطلقاً بل عدم نسبي، أي عدم تجاه نشأة معينة، ووجود في نشأة أخرى، فالفناء هنا نسبي مثلما لو تحوّل التراب إلى نبات، فإن التراب لم ينله العدم المطلق، وإنما هو الموت النسبي، الذي تحوّل إلى حياة أخرى بالنبات، وبهذا المعنى يكون الموت بالنسبة إلى الإنسان أشبه بانتقال الإنسان الذي كان جنيناً في رحم أمه إلى عالمه الجديد خارج الرحم بعد الولادة.. وإن كان التشبيه ناقصاً هنا، لأن عالم الدنيا وعالم الآخرة هما نشأتان تختلفان اختلافات أساسية.

ولكن يمكننا القول إن نظام حياة ما قبل الولادة مختلف تماماً عن نظام حياة ما بعد الولادة، فالطفل الذي كان يتغذى في رحم أمه بواسطة الحبل السري، ولا يستفيد من فمه وكل جهازه الهضمي، كما لا يستفيد إطلاقاً من جهازه التنفسي وغيره من الأعضاء والأجهزة، أصبح عكس ذلك بعد الولادة..

وهكذا فالدنيا بالنسبة إلى الآخرة مثل رحم يتمّ فيه صنع وإعداد الأجهزة الروحية للإنسان، وذلك لإعدادها للحياة الأخرى.

فالاستعدادات الروحية والإيمانية العميقة، وكذلك الآمال العريضة والأفكار الممتدة واللامتناهية، كل هذه خلقت متناسبة مع حياة أطول من هذا العالم الفاني.

فلو كان الإنسان بكل هذه التجهيزات والاستعدادات الروحية لا عودة له نحو الله ونحو الحياة الممتدة الخالدة، لكانت قد خلقت عبثاً ثم سلّمت إلى العدم دون الاستفادة منها!

والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون**﴾ [المؤمنون: ١١٥]. أي هل تتصورون أنكم بكل هذه الأجهزة والإمكانات الرائعة العظيمة التي زودتم بها قد خلقتم عبثاً، وأن هذه الأجهزة لا هدف لها ولا غاية منها حتى ولو كانت بعد رجوعكم إلينا؟!

إذاً الموت نهاية لفصل من حياة الإنسان وبداية لمرحلة جديدة، إنه بالنسبة إلى الدنيا موت ولكنه بالنسبة إلى الآخرة ولادة، كما تكون ولادة الطفل بالنسبة إلى الدنيا ولادة، وبالنسبة إلى دورة الرحم موتاً.

مرحلة الإعداد والتهيؤ

إن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، هي مرحلة تهيؤ واستعداد، وهي في الحقيقة مدرسة ودار للتربية، وليست الدنيا مضيعة وعبثاً تستحق الذم فقط لأنها خادعة.

وقد ردّ أمير المؤمنين علي (ع) على رجل راح يذم أمامه الدنيا، على أنها تخدع الإنسان وتفسده، وقد سمع هذا أن العظماء يذمّون الدنيا متخيلاً أنها بذاتها شر.

قال (ع): "**أيها الذام الدنيا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أتغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرّم عليها، أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرّتك؟ أبمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن اتعظ بها. مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله. من ذا يذمّها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكرتهم الدنيا فتذكروا، وحدثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا**".

ويقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿**...الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ [المُلك: ٢].

أي أن الدنيا المركبة من الحياة والموت وليست الحياة وحدها، هي مكان لاختبار أعمال الإنسان الصالحة، فالاختبار الإلهي يخرج الصفات الإنسانية من مجرد القوة والاستعداد الكامن إلى مرحلة الفعل والكمال.

دوافع الاعتراض على الموت

إن هذا التفسير لحقيقة الموت يبين خواء الاعتراضات المعبّرة عن السخط والنفور منه، إذ أنها اعتراضات ناشئة عن عدم معرفة حقيقة الإنسان والكون. فلو كان الموت

نهاية للحياة، لأصبحت الرغبة في الخلود والآمال المعلقة عليها، عذاباً أليماً للإنسان، ولأصبحت صورة الموت في مرآة الفكر المستنير مولّدة لنبع من الوحشة لا نهاية له. وإن وجود أفراد من الناس يعتبرون الحياة لغواً وعبثاً، ناتج عن كونهم يأملون في الخلود، ولكنهم يرونه غير قابل للتحقق، فلو لم تكن لهم الرغبة في الخلود لما اعتبروا الحياة لغواً لا فائدة وراءها، إذ أن عيب الحياة في نظرهم كائن في قِصرها، فكيف لو كان العدم هو الذي يعقبها؟ فهل يكون العدم هو الأفضل.

وإذا ما دققنا في أمل الخلود نفسه الموجود لدينا، نرى أنه منبثق عن تصورّنا للبقاء الدائم وجماله وجاذبيته، وهذه الغريزة لو لم تكن موجودة فينا، لما ظهر مثل هذا التصوّر، فالإنسان وتكوينه الواقعي والخفي قد خلق بشكل غرس فيه الأمل في الخلود باعتباره الوسيلة إلى الكمال. والإنسان الذي لا يؤمن بالحياة الأبدية يجد تناقضاً بين تكوينه الواقعي من جهة، وفكره وأمله من جهة أخرى، وذلك لأنه يرى نهاية الحياة هو العدم، فالحياة تصبح عنده إذاً لغواً وعبثاً.

أما الإنسان الذي يعتبر الدنيا مدرسة وداراً للإعداد، وهو مؤمن بالنشأة الأخرى، لا يمكن أن يعترض على الموت، وهو يعيش حالة الانسجام بين واقعه وفكره وأمله. ولعلنا نتبين هذا المعنى وهذه النظرة الواقعية المتفائلة للموت، من خلال هذه الرباعية للشاعر الروحاني أفضل الكاشاني حيث يقول:

"عندما التصقت جوهرة الروح بصدف البدن
تكوّنت صورة الإنسان من ماء الحياة
ولما تكاملت الجوهرة انكسر الصدف
وطارت الجوهرة لتجلس على قمة تاج الملك".

فهذه الرباعية تبين أن فلسفة موت الإنسان، تعني تحريره من سجن الكون الطبيعي، لينتقل إلى سعة جنة الله التي وسعت السماوات والأرض. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ أي نحن متعلقون بكل وجودنا بالله، وأن عودتنا نحوه سبحانه.

في الموت حياة

إن ظاهرتي الموت والحياة تحققان معاً في الكون نظاماً متعاقباً، فإن موت فئة ما يهيئ أرضية لحياة فئة أخرى. فلو أن الناس الذين عاشوا قبل ألف سنة لم يموتوا، لم تصل دورة الحياة إلى الناس الذين يعيشون في الوقت الحاضر. وهكذا أناس اليوم إذا امتدت حياتهم، فإن إمكانية وجود غيرهم في المستقبل سوف تمتنع.

وقد يعترض إنسان فيقول: إن قدرة الله تعالى لا نهاية لها، فما المانع من بقاء الموجودين حالياً وتوفير المكان والغذاء للذين سيأتون في الوقت نفسه، وهذا المعترض لا يعلم أن كل شيء له إمكانية الوجود فقد أفاض الله عليه ذلك الوجود، وأن الذي لم يوجد فهو ليس له على الإطلاق إمكانية الوجود، وفرض مكان آخر وبيئة أخرى مواتيتين ــ

على فرض إمكان ذلك ــ سيوفران إمكانية وجود أناس آخرين، ولكن الإشكال سيبقى كما هو لأن بقاء هؤلاء الموجودين حالياً سيوصد الباب أمام مجيء الآخرين في المستقبل.

حكمة أخرى للموت

للموت أثره الكبير في العمل الصالح لدى الإنسان، لأن الإنسان مطبوع على الشر والفساد، كما هو في الوقت عينه لديه استعداد لأن يغلّب جانب الخير فيه، فيصبح أفضل من الملائكة، هذا الإنسان يجد في تمازج العلاقة بين الموت والحياة دافعاً قوياً للعمل الصالح والحسن، قال تعالى: ﴿**الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾.

فإذا كانت الحياة شرطاً من شروط العمل الصالح والحسن عند الإنسان، فكذلك لو لم يكن الموت، فلا معنى للعمل الصالح، لأن نفس الموت ونفس علم الإنسان بأنه يموت يشجعانه على العمل الصالح، فلو أن الإنسان ظن بأنه مخلد في هذه الدنيا فهل يعمل صالحاً؟

نعم، قد يكون هناك قلة من الناس نظير الأنبياء (ع) والأئمة الهداة (ع) يخرجون عن هذه القاعدة، ولكن طبيعة الإنسان بصورة عامة تظهر أنه لا يعمل القبيح لأنه يعلم أنه يموت وأنه محاسب على عمله، فلو تأكد بأنه لا يموت لتضاعف شره ولوصل عمله الصالح إلى درجة الصفر.

وأخيراً، فإن الذين يعيشون في الأفق الفكري الضيق والسطحي للمادية، يرتعشون من فكرة الموت، لأنه من وجهة نظرهم عدم، وهم يتعذبون منها لأنهم يعتقدون أن الجسم هو كل الحقيقة، وتحطمه يدفعهم للنظر إلى الكون بتشاؤم، وهؤلاء لا بد لهم من إعادة النظر في تفسيرهم للكون والحياة، وليعلموا أن اعتراضاتهم الطفولية ناتجة عن تصوّرهم الخاطئ للكون.

أما في فلسفة من يقول "كما تنامون تموتون، وكما تستيقظون تبعثون" ــ حديث نبوي شريف ــ فإن الإشكالات هذه جميعها محلولة، فإنسان كهذا ليس فقط لا يهاب الموت، ولكنه مثل علي (ع) مشتاق له، ويعدّه فوزاً وانتصاراً.